مقدمة الدكتور يوسف ادريس عن المجلد الثاني من الآثار الكاملة لأعمال الرفيق الشهيد غسان كنفاني

كان غسان اول كاتب في كل تاريخ ادبنا العربي يعيش قضيته الى حد الشهادة

ان قيمة الكاتب الفنية أيضا تستمد كمها وكيفها من القضية

المقدمه التي كتبها الدكتور يوسف ادريس القصاص المصرى المعروف للمجلد الثاني من الاثار الكامله لاعمال الرفيق الشهيد غسان كنفاني ، والذى سيصدر في الذكرى السنوية الاولى لاستشهاده . « الهدف »

لم احس بفخر ابدا اني اكتب القصة القصيره . لا شيء من ذلك برأيي كان يدعو الى الفخر وايضا لا شيء يدعو الى الاحساس بالعار . هي جزء من وجودي او وجودى ، لا ذنب لي فيه ولست صانعه .

المتعه احسست بها هذا صحيح ، الرغبه في الكمال ، ضياع الثقه بالنفس ، استعادة الثقه ، كل هذه وغيرها احسست بها .

ولكن الفخر اني كاتب قصة قصيرة احسسته مرتين في حياتي .

والغريب ان المرتين كانتا تتعلقان بغسان كنفاني .

الاولى حين استشهد على تلك الصورة المروعه . وكان استشهاده النهاية القمة لحياة كاتب ينتمي الى هذا العصر والى هذا الشعب والى قضيه مثل قضيته . حياة جديدة لكاتب جديد ، غسان ، بدأ منذ الخمسينات يحتل ساحه الادب العربي وينقل الكاتب والكتابة العربيه من حيث كانت وكان ، دائما على الهامش ، الى حيث اصبح واصبحت الان جزءا لا يتجزأ من عظم الوجود العربي ولحمه ونخاعه .

دهور طويلة ودهور ، وفقهاء الادب وكهانه يطلعوننا عن الادب كل ما لا يجب ان نتعلم ، حتى في مطلع القرن حين اعتبروه فنا وشيئا غير البلاغة واللغه ، ظلوا سالخينه عن الحياة والاحياء ، عن الكفاح والسياسة ، عن العلم والاقتصاد والتاريخ ، عن الثورة . ظل ايضا واحدا من « الفنون الجميلة » والاقوال الجميلة والنظم الجميل. غرقنا في بحور من الجدل عما هو فن وما هو غير فن ، ما هو شكل وما هو مضمون ، عن الكاتب الذي عليه كي يخلد ان يختار مواضيع خالدة وحبذا لو كانت عن الحق والخير والجمال . والمثل حاضر دائما : امامك شكسبير ، امامك راسين ، امامك بوشكين وجوجول وادجار الن بو ، فقلبونا مفهومات ونظريات ونقد جديد ، نقد جديد قديم ، ونقد للنقد ، ومنهج موضوعي ونفسي وفرويدي للنقد . هكذا ، كما تاهت كلمه الاشتراكية في خضم ما اغرقنا به من كتب ونظريات وشروح وفلسفات ، بحيث رغم اكثر من ربع قرن من حديث دائم عن الاشتراكيه وتاليف وترجمة وتاليف مترجم عنها ، لا يزال المواطن القارىء العادي لا يستطيع الى الان ان يعرف الاشتراكية بجمله واحدة مفيدة ، نفس المواطن الذي من الممكن ان يحدثك ساعة باكملها عن القاسين وتعاونيات « اوجين » .

هكذا ايضا تاهت كلمة الفن ، ومن باب اولى فن الكتابة .

من هو الكاتب ؟ اسأل، واظفر بالف اجابة، ولكنك ابدا لن تظفر بالاجابة الوحيدة الصحيحة .

الكتابة قضيه ، والكاتب انسان صاحب قضيه يؤمن بها ويتبناها الى حد يحشد فيه كل ما يملك من حساسية لاستيعابها ، وكل ما يملك من قدرة على التعبير عن احساسه ذاك ليعبر عنها بالف لون ونوع من التعبير .

حتى شكسبير الذي يضرب به المثل في خلود الكتابه حين يبعد عن السياسه وعن المشاكل اليوميه وعن حاضر الانسان الملح . لم يصبح شكسبير الا لانه كان عكس ذلك تماما . فاخر ما كان يفكر فيه الرجل ان يخلد او يتناول المواضيع الخالده ، اذا كان همه الاجل من كل عمل مسرحي يكتبه هو الوضع في انكلترا في ذلك الوقت بالذات . واذا كان يلجا للتاريخ فقد كان يفعل ليتحدث من خلاله عن الحاضر . كان شكسبير ثائرا على طبقه انجلترا الحاكمه، ولكنها تلك الثوره العميقه الذكيه المستمرة . ما من عمل من اعماله الا ومن خلاله كان يتناول شريحة او شخصيه او ماخذا لهذه الطبقة ويبراعة فائقه يدنيه ويكشفه ويحلله ويصنع في مقابل النماذج الممسخة ، ذلك البطل الجديد . ان ماساة مثل ماساة « عطيل » نفسها لا اظن مطلقا ان دافع شكسبير لكتابتها كان ان يمجد غيرة عطيل الحمقاء وحسن نواياه التي تصل الى السذاجه ، او يمجد استشهاد ديدمونه . ان التعليل الاصدق والابسط انه كتب هذه الماساة ليرى جمهوره من خلالها نموذج الشر الغريب الممثل في « ياجو » وليسقط جمهوره شخص عطيل على نموذجها الحي المقابل . تماما مثلما يكتب اي مسرحي عملا مسرحيا معاصرا يجسد فيه دور المخابرات في الدول الحديثه من الصاق التهم بالابرياء، ودفع الحاكم للاطاحه بهذا او بذاك بناء على المعلومات التي قدمتها مخابراته او الادلة المزورة التي وضعتها نصب عينيه . وفي الماضي كان اشخاص بمفردهم هم الذين يقومون بدور الاجهزة ، اشخاص مثل « ياجو » في مسرحيه عطيل . وربما من اجل هذا السبب كتبها شكسبير ، فحجر الزاوية في المسرحية ليس الغيرة، حجر الزاويه الاساسي هو العلاقة الغريبة بين « عطيل » و « ياجو » علاقة الهمس الشرير في اذن الغضوب القوي حسن النية .

بيكاسو لم يصبح بيكاسو لانه تكعيبي او زرقاوي او تجريدي ، لبيكاسو قضية ، هي شعب اسبانيا ، وفي واعيته ولا واعيته وجوه مفضنة بالشقاء والالم والماساة . ان تشابك الوجه الاسباني بماساته من كثرة ما الح هذا التشابك والح على وجدان شديد الحماس شديد الحساسية شديد التاثر بالعلاقات والاشكال ، ولد بيكاسو ، ولا يزال ، كفنان، حيا ، لانه ، كفنان لا يزال يحيا قضيته .

بل ان قيمه الكاتب الفنية ايضا تستمد كمها وكيفها من القضية ، بمقدار صدقه تكون قيمته ، بمقدار دابه الملح على الصدق وسبر الحقائق للوصول الى حقيقة الحقائق ، بمقدار عمق الايمان يكون عمق الموهبة . الاصالة هي من اصالة قضيتك والعبقرية هي ان تصل بايمانك وبتعبيرك عن هذا الايمان حدا لا يصله غيرك ، لن تجد عبقريا واحدا الا وهو مؤمن ومهووس الايمان بقضية الى حد يعجز .

احسست لاول مرة في حياتي بفخر اني كاتب من كتاب القصة العربية القصيرة حين استشهد غسان كنفاني . فبحياته حين انتهت هكذا ، انتقل من حيث الكتاب الى حيث الابطال وكان اول كاتب قصة يفعل هذا ، بل، بالادق اول كاتب في كل تاريخ ادبنا العربي يعيش قضيته الى حد الشهادة . احسست بفخر اني انتمي لغسان وانه من نفس جيلي وان تاريخ الكتابة العربيـة ، الكتابة وليس صنعه الكتابة ، سيبدأ هنا . صفحة جديدة تنهي تاريخا طويلا من العيش ذلا ، وقضاء العمر في خدمة السلطان ، كل سلطان ، بل احيانا في خدمة من هم في خدمة السلطان . ذلا يعيشون ، وما اذل ما يكتبون ، لالف

ان كل كلمة أقرؤها هنا ليست مجرد كلمة مأخوذة من لغة، انها كلمة ذات ثمن، كلمة لها رصيد، أغلى أنواع الرصيد، حياة كاتبها

وخمسمائة عام واكثر وهم يقتلون الادب كتابة ويخنقون ، جيلا وراء جيل ، قدرة الخلق عند الرواد الجدد . تاريخ طويل ملاوا به نصف دار الكتب مخطوطات كثيرة ليس في ٩٩٪ منها فكرة واحدة اصيلة او خارجة عن المالوف ، ولانهم طلاب دنانير ، والخلفاء يجازون بحجم الكتاب فلتتضخم الكتب وتتعدد اجزاؤها ، وليس في صفحة واحدة منها كلمة واحدة افادت الناس في عصرهم او فيما تلى هذا من عصور . لولا قلة قليلة كابن سينا وابن رشد « وحتى هؤلاء لم يكونوا كتابا بالمعنى الدقيق » لكنت قد دعوت الناس الى الاحتفاظ بهذه المؤلفات كنماذج للخط العربي ليس الا .

تصوروا هذه الالاف المؤلفة من الكتب ليس فيها كاتب واحد حاول ان يبتكر قصة او يروي حتى نادرة . ومن بين مئات الالفها لا يوجد الا كتاب البخلاء للجاحظ يستحق ان يقرا . الكتاب الثاني ليس عربيا للاسف وانما هو كليلة ودمنة ومترجم عن الهندية .

لولا الكتاب الشعبيين ، اولئك الذين كانوا على الاقل يقدمون لرواد النوازل والمجالس متعة ، ولولا ما جمع من كتاب الف ليلة وليلة لخلا الادب العربي كله من القصة . ذلك ان القصة لم تكن تعود على صاحبها بكيس مليء بالدنانير ، وهكذا كان على الكاتب الذي يريد ان يحظى بصلة ان ينافق الحاكم ويكتب ما يحله مكانة عنده . والحقيقة ان هذا النوع من التراث هو بالتاكيد تراث للنفاق . نفاق كاتبه لمشاهير عصره من الكتاب ، ونفاق للحاكم او الوزير ، ونفاق لما هو سائد ومنتشر من افكار ، نفاق في نفاق . هذا هو تاريخ النثر العربي . ذلك النثر الذي بدا بالرسول الكريم محمد كاتبا . بل ومثالا لما يجب ان يكون الكاتب . لقد كان محمد الناثر الكاتب كاتبا ذا قضية . كان الاسلام قضيته . واقرأ كتب الحديث ستجد الاسلام لا يغيب لحظه عن حرف او جملة او كلمه . هو دائما نصب عينيه، هو دائما موجود ، وبطريقة خلاقة موجود ، فاذا كانت القضيه واحده فالحديث دائما يضيف اليها الجديد ، ويخلق فيها من جديد .

ان نثرا بدأ بمحمد ، نثرا بدأ بكتاب الله القرآن والقصة فيه تحتل المكان البارز نثرا هذا شانه كان جديرا خلاف اكثر من بضعة عشر قرنا ان يصل بالقصة العربية وبالروايه وبكل فنون الكلمة حدودا كان لا بد بها ان تسبق اوروبا بكثير . ولكن النثر للاسف تسلمه اناس غير كتاب في احيان او كتاب قضيتهم الوحيدة لقمه العيش والنصب . ولان الشعر ايضا تسلمه المداحون فالنتيجه ان مات فن الكتابة العربية . وربما لو كانت فنون الكلمه قد ظلت حيه وعليها ظلت تتغذى ارواح الناس وعقولهم لكان شعبنا العربي شيئا اخر. ولكن ، لان الدوله قامت وسيف المعز ، اي معز ، قبل روح الامه تقبل فنونها وفنانيها فقد كان طبيعيا ان تؤدي الدوله الى دول ، والدول الى شيع وان يسيد الحكام بحياة الامة الروحيه ويزيفوها كي تلائم اهواءهم . كان طبيعيا ان تنتهي دولة العرب الكبرى ، دوله الاسلام . وعلى يد الترك اخمدت البقية الباقيه ولتماماته عام مات الامه . ولم تبدا تحيا حتى بقيام دوله محمد علي في مصر او ابراهيم ، من عهد اسماعيل فقط حين بدات نسمات الحريه تهب وتصبح القاهرة ملجا لكل فنان وكتاب الشام والعراق وافغستان والمغرب العربي ، هنا فقط ، بدات علامات حياة تدب .

وكان لا بد ان ينقضي مائة عام على الاقل ، قبل ان يصل الكاتب العربي، ليس الى مستوى الكاتب الاوروبي فقط ، وانما الى اعلى مستويات الكتابه قاطبة ، مائة عام قبل ان يستشهد كاتب عاش ومات وكتب تعبيرا وتبشيرا واعلانا عن قضيته ، قضية شعبه .

هذه مرة .

المرة الثانيه التي احسست فيها بالفخر اني كاتب ، حين تفضل الاصدقاء وعهدوا الي بكتابة هذا التقديم لقصص غسان كنفاني القصيرة الكامله .

لا اقولها لاجامل او اضخم . اقولها لاني فعلا احسستها واعنيها .

لو كانت اكبر بيوت النشر في العالم قد طلبت مني ان اقدم قصص كاتب مشهور لفرحت قطعا وربما شعرت للحظة بالغرور .

ولكن ان يطلب مني تقديم قصص غسان كنفاني فانه شيء لا احس له بفرحة ، انه شيء يجعلني احس بتشريف اعتقد اني غير جدير به . من انا حتى اقدم كاتبا رفع عن الادب العربي كل عاره وغسل بدمه تقاعس مئات السنين ؟ من انا ، وماذا فعلت للقضية كي اقدم كاتبا فعل من اجلها ما اصبح في عداد الاساطير ؟

اني اذ اشكر لزملاء غسان ورفاقه ومواطنيه هذه الثقة لاعترف وانا خجل اني لم اقرا لغسان وهو حي سوى قصة او قصتين . بل واعترف ايضا اني لم اره في حياتي الا مرة واحدة حين جاء القاهرة لحضور مؤتمر الكتاب الاسيويين الافريقيين . وبالصدفة قابلته ، ولاننا كنا من مجموعة كبيرة فلم نتبادل الا اقل القليل من الكلمات ، فحتى هذا اللقاء اليتيم نفسه لم يستمر اكثر من نصف الساعة .

واناسا كثيرين نلقاهم ، كتابا كبارا احيانا ومشهورين ، وحين نتركهم نحاول البحث في نفسك عن الاثر الذي خلفوه . نادرا جدا ما نلقى انسانا ، ذلك اللقاء السريع ، وتحس ، وفي التو انه خلف في نفسك اثرا لا يمحى .

كان جادا ووسيما وابيض البشرة .

وليس من ذلك النوع الذي ما يكاد يلقاك حتى يفتح صدره على مصراعيه ويدلق كل ارائه في الناس والحياة وربما استشارك بعد دقائق في اخص مشاكله .

كان قليل الكلام .

وحين ذكرت له اني لم اقرا له الا قصة او قصتين ابدى دهشة غير مبالغ فيها، واستغرب ان يحدث هذا وقد كنت اول من فكر ان يهدي له اول مجموعة قصصية صدرت له .

وابتسمت ابتسامة من يعتذر عن جرح شعوره. واني لي ان اقول له لحظتها اني اتلقى في اليوم الواحد ومن انحاء الوطن العربي عددا لا يستهان به من الكتب والمجلات والاعمال القصصية المكتوبة بخط اليد . وان قراءة هذا كله يستلزم لا بد تفرغا كاملا ، ولعدة ايام متالية ، محصول بريد اليوم الواحد من الكتب يستلزم اياما بمطلقها لقراءته .

وحين قرأ في عيني الشك ان يكون الكتاب قد وصلني ، عاد يؤكد انه ارسله ، بل انه لا يزال يذكر الاهداء الذي ارسل به الكتاب .

نعم ، ولم ذكائه الشديد وتجاربه وحياته التي اضطرته ان يتعلم الحرص ، كان لا يزال بعينيه تلك الثقه الطفولية البريئة في الاخرين، وفي وقوفهم منه نفس ما يتوقع .

ومن ثقته البريئه تالوه ودمروه .

انشأت اذن اقرا كل قصه قصيرة كتبها غسان ونشرها .

وابدا لم احاول ان اكون « موضوعيا » كما يرددون دائما ، واقراه وكاني اقرا كاتبا حيا ، وكاني لا اقرا لغسان الذي ظل يؤمن بقضيته حتى مزقوه اربا ، وكاني لا اقرا كتابة خطتها نفس اليد الناحية البيضاء التي رايت صورتها في الجرائد وقد بترت والقى بها الانفجار الى احد سطوح المنازل على بعد عشرات الامتار .

ما معنى ان تكون موضوعيا هنا ؟

وهل ممكن ان تضبط انفعالك بحيث تقرا قصة لغسان بعد مصرعه ، بنفس الاهتمام والانفعال اللذين تقرا بهما قصة لفلان وقد كتبها من مكتب وثير فاخر ويهدف ان يثير بها عواطف اجيال المراهقات فيجعلن منه كاتبهن المفضل ويقبلن على كتبه ليصل توزيعها عشرات الالاف .

ان كل كلمه اقرؤها هنا ، ليست مجرد كلمه ماخوذة من لغه ، انها كلمة ذات ثمن ، كلمة لها رصيد ، اغلى انواع الرصيد ، حياة كاتبها .

ان الجمل التي جاءت على لسان جيفارا في مذكراته لا تختلف من الناحية « الموضوعية » كثيرا عن الجمل التي يتشدق ونتشدق بها الثوار في كل مكان .

جمل جيفارا ستخلد وستبقى لانها جمل من دم ولحم وحياة . اذا كانت تشبه غيرها فحياة جيفارا ومصرعه هي التي تصنع ذلك الفارق الهائل المميز .

وهنا ايضا نجد الفارق . ثمة شيء لا بد قد حدث لقصص غسان باستشهاد غسان، كانت كلاما فاصبحت صدقا ، كانت تحيا معنا على الارض فارتفعت الى السماء ، كانت تماثيل بصمها مخزن ، فوضعت كل منها فوق اعلى قاعدة لتمثال . ان الشهيد لا يخلد وحده باستشهاده ، كلماته ايضا تستشهد معه وباستشهادها تستحيل من كلمات ذات حياة موقوتة فانية الى كلمات حية على الدوام ، صادقة على الدوام ، مضيئة بمزيج اسطوري من النبل والسمو وجلال الانبياء .

ان التجربة الروحية الفريدة التي مررت بها وانا اقرا كل القصص القصيرة التي كتبها غسان احدثت في نفسي اثارا لم اكن احلم ان اتصورها .

ففوق انها جعلت قضية الشعب الفلسطيني تتحول في نفسي من عريضة دعوى واعمال بطولية اخبارية ، وشعارات ، تحولت الى مادة حية خالدة الحياة، الى قلوب وصدور ونبض، الى اطفال حقيقيين ونساء ورجال مثلما يتحول كتاب الجغرافيا امامك فجاة ليس فقط الى فيلم حي ، ولكن الى احياء يحملون على اكتافهم كل تاريخ ذلك الشعب وخصائصه، كل ملامحه ودروب خوالجه ، كل ما يجعلهم اخلد حتى من الشعب ذاته ، فليس اخلد من الشعب الا الشعب حين يصبح غناء وموسيقى ولوحات.

وفوق انها جعلتني ، وايضا لاول مرة ، اقرا الانتاج الكامل لغسان كنفاني او لاي كاتب اخر ، فقد جعلتني افطن ايضا الى ان قراءة قصص غسان القصيرة على انفراد شيء اخر غير قراءتها مجتمعة . ففوق انها خلية حية ممكن ان تقوم بذاتها فهي حين تنضم الى باقي انتاجه يكون الانتاج جميعه كائنا حيا عملاقا ، او بالاصح عملا فنيا واحدا اكبر بكثير من كل مكوناته مجتمعة ، تكون في النهاية « قصة » غسان كنفاني . ودعك من روعتها والاثر المهول الذي تركه ، فهي هكذا ، وبالنهاية المروعة التي انهتها اعظم قصة في تاريخ الادب العربي بل ربما في تاريخ غيره من الاداب .

ولم ار تكاملا مثل هذا التكامل . ان البطل في مجموعته الاولى مراهق يتعلم القضية لا نزال ، ويتعلم عش « النازحين » ويتعلم ضرب النار. وبالتدريج ينقلنا غسان مع البطل والقضية لنصل بهذا المراهق الى الحد الذي اصبح القتال عمله من اجل حل قضيته، ونصل بالقضية الى المدى الذي اصبحت فيه « ايدولوجيه » كامله وفلسفة بل وكل الحياة.

وهناك النهاية تلك التي لم يكتبها غسان في قصصه القصيره او الطويلة فنهايات مثل تلك لا تكتب . لقد ظل يكتب حتى بلغ الحد الاعلى للكتابه ، حتى لم يعد هناك ما يكتب . وهكذا كان لا بد للنهايه ان تكون عملا فوق الكتابه وفوق ابعاد التصور ، وفوق الخيال . كان لا بد ان تكون « العمل ، الشعر » او الاستشهاد ارقى واعظم وابسل مراحل اي عمل فني او انساني على الاطلاق .

الحقيقة الغريبه التي تكشفت لي ايضا وانا اقرا القصص كامله ان الموضوع الواحد ممكن، في يد الكاتب الصادق الملهم ايضا ، كل سطر في هذا الكتاب ، كل كلمة ، كل حرف من الممكن ردها مباشرة الى هذا الموضوع الواحد .

لقد كانت فلسطين موضوع حياة غسان ، وموضوع كتابات غسان ، وموضوع رواياته ، ومقالاته وقصصه القصيرة ، كانت ايضا موضوع حياته وموضوع موته .

وهنا تكمن عبقرية غسان ، هذا الاخلاص الكامل للقضيه مع الصدق الكامل لهذا الاخلاص جعله يستطيع ان يكتب كل هذه الاعمال ، ومعظمها فنية ، دون ان يكرر نفسه مرة او يتحدث عن الشيء الواحد مرتين . بل لا اريد ان ابالغ واقول ان موضوعه الواحد لم يكن فلسطين كلها دائما كان شريحة واحدة من القضيـة ، هي موقف الفلسطيني من قضية فلسطين .

اي اعجاز !

لقد كنت احيانا اضع الكتاب جانبا واتامل عمق احساس هذا الانسان بقضيته وتشبعه ، ايمكن ان يبلغ الحساسيه هذه الدرجات القصوى من الرهافة والدقة . انه شيء لا يمكن ان يحدث الا اذا كان الكاتب يحيا ويؤمن باطراف انامله ، بلحظات حسه ، بذوبان احشائه ، بالدمعة اذا ذرفها ، بانته ، باطراف اطراف فراشه .

ان جنون القهر يبدو متسامحا ازاء هذا النوع من الايمان .

ونعود الى مواضيع النقاد الحبية . الفن في قصص غسان كنفاني . حسن اذن . هذا رجل لم ينشغل ولم ينسق في تيار الوعي ، ولا شغل نفسه بتجديد الشكل من اجل التجديد. ومع هذا فغسان كاتب جديد فعلا . حتى في الشكل جديد . ان الجدة لا تاتي من نظم الجمله او احالة اللغه الى كلمات واختصار المواقف في رمز . الجدة ان يكون محصول العمل ، في نهاية اكماله جديدا . الرؤيا جديدة . رؤيا لم يسبق اليها احد ولا طافت بذهن بشر ، في قصص غسان الاولى ـ وهذا شيء طبيعي ـ كان تاثره واضحا بجوركي وتشيكوف وبالسابقين عليه قليلا من جيله من الكتاب العرب . ولكن غسان ما لبث ان وجد طريقة ، فالقضية ، ذلك الجبل المغناطيسي الهائل كان جذبها اقوى من اي نزعة اخرى او مسالك اخر . ونفسها القضية شكلت اسلوب غسان الخاص ، وهكذا حدد غسان للعمل الفني القصصي الذي يتناول قضية شعبية شكلا فنيا بارع الاتقان ، واهم ما فيه انه غسان كنفاني مائة بالمائة .

ليس علي ان احلل القصص فاتتبع خيوطها ومدلولاتها منذ ان كانت اجنة فقط ، الى ان اصبحت اشجار خطوط مليئة بالشبابك والثمار وحبوب اللقاح . ليس هذا عملي ، ولا عملي ايضا ان امسك كل مجموعة لاحدد لها معالمها النقدية الخاصة . ليس لي شرف النقد . وليس لهذا التقديم حتى شرف التقديم . ان هي الا كلمة ، ارجو ان تكون كلمة طيبة ، كلمة لا حول لي فيها ولا قوة ، فقد عرفت اعمال غسان اكثر بكثير مما عرفته ، وقد عرفته حيا اقل بكثير مما عرفته شهيدا . ومعرفة غسان حتى ولو لم نستطع معرفته امر سهل انما الاحاطه به هو المستحيل .

واخيرا ماذا اقول .

اقول ان قراءة هذه المجموعة افادتني وعلمتني عن الفن والقصة والثورة والشعب اكثر بكثير من كل ما طالعته عنها ؟

اقول اني بعد قراءتها ادركت ان مصرع غسان لم يكن صدفه او مجرد فورة ، ولكنه النهاية التي كان يعرفها سلفا ويعرف انها خاتمه المطاف ، ومنذ اول سطر كتبه ومنذ اول منشور وزعه .

لقد كان غسان ثوريا صادقا . انا لا اتكلم عن اعتناقاته . اتكلم عن نوعه . هذا النوع النادر بين الرجال ، وحتى بين الثوريين ، النقي نقاء الضمير ، المخلص الى اخر المدى، ذلك النوع الذي منه دائما تغرف التضحيات ، منه يسجنون ، منه يقتلون ، منه يعذبون وينكلون . ذلك لان اعداء الثورة واعداء العرب واعداء الحياة يعرفون ان هذا النوع اخطر الانواع ، فلا شيء يجدي معه ، حتى الارهاب ، حتى التهديد ، حتى اسخى انواع الاغراء . الثورة عنده هي الله ، واي شبه حلا الحل الثوري شرك لا يمكن ان يقبله .

من اجل هذا قتلوه ، وسيقتلون كل غسان كنفاني . ولقد كان يعرف ، والذين ينتظرون الموت ايضا يعرفون . كان يعرف ولكنه كان شك ، ليس في النهاية وانما في جدارته للنهاية اذ معناها انه الانقى والاطهر والاشرف، ورغم كل شيء فهو لم يكن يعتقد انه كذلك او باستطاعته ان يكون كذلك ، بل من اجل ان يكون ، راح يندفع في النضال اكثر ، ويكتب اكثر ، ويحس ، كالصوفي المبتل ، ان بينه وبين الوصول مشوار ومشوار . حسن يا غسان . لقد كنت واصلا وانت لا تدري. وكنت كاتبا وانت لا تريد . وكنت مناضلا وانت تعتقد انك كاتب . وكنت فنانا عظيما والفن عندك تراه ابعد ما يكون . لقد وصلت . ومن الاعداء تلك صك الوصول .

* * *

ايها الناس .

اقراوا هذه القصص مرتين .

مرة لتعرفوا انكم موتى بلا قبور .

ومرة اخرى لتعرفوا ان قبوركم تجهزونها وانتم لا تدرون . قبور الثقافة بلا ثورة والثورة بلا ثقافة . قبور الخوف على الحياة حتى تستحيل في النهاية الى وجود حيواني خسيس.

اقراوا هذه القصص ...

لهذا رجل عاش

عاش كما لم يعش احد

حتى بمقاييسكم البورجوازية

فقد نال من الحياة اقصى ما تستطيع تقدمه من نعم

نال متعة الشرف ، متعة الحر .

اما متع العبيد التي تلفون فيها فاه لو رايتموها على حقيقتها يوما .

هذا رجل عاش

ومات

مات مفجرا منسوفا .

ولكن كل قطعة من جسده، كل خلية ، ستحيل من الوجود حتى وجودكم انتم ، اضعاف اضعاف ما تحتله افيالكم وسياراتكم و ...

ذلك انه مات كي لا يموت . مات كي يعيش.

اما انتم فقد متم مرات خوفا من الموت .

ان الرجل نبضة صدق وحرية .

والنبض في كثير منكم توقف من زمن ، اما الحرية ...

اقراوا قصص غسان كنفاني .

واجعلها يا شعب فلسطين قرآنك

غنوها وترجموها واحفظوها فهي اعمال تصنع الرجال

ام ان هذه الامة العربية ، لم يعد يهمها ان تصنع الرجال !؟

* * *

غسان

الامانة وصلت والرسالة قضت ، ولك ان تنام قرير العين ..